الظهار كيف نعرضه في الكتابات الإسلامية؟

قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى الله وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ..) [المجادلة 1 – 4].

المحاوِرة

يبدو أن هذه المرأة مثقفة على درجة عالية، لأنها مجادِلة ومحاوِرة، ولمن؟ لرسول الله ﷺ. سمّيت بها السورة وافتتحت بها. ومن يقرأ أول السورة يتمنى أن يطلع على النص الكامل لحوار هذه المرأة مع رسول الله ﷺ.

هذه المرأة هي التي وضعت مشروع قانون الظهار في الإسلام، فالنبي ﷺ كان يقول لها: طلقت، وهي تقول: ما طلقتُ، ولا طلقني! هي أول من فرّق بين الطلاق والظهار، بثقة وإصرار، حتى اشتكت إلى الله بعد أن اشتكت إلى الرسول. لقد أمضى الله لها مشروعها، ووافق عليه، أي نزل القرآن بتأييدها.

لم ينزل القرآن بموافقة عمر فحسب، ولم ينزل بموافقة الرجال فحسب، بل نزل بموافقة النساء أيضًا.

مرّ بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته، والناس معه، فاستوقفته طويلاً ووعظته وقالت: يا عمر قد كنت تدعى عُمَيْرًا، ثم قيل لك: عمر، ثم قيل لك: أمير المؤمنين، فاتّق الله يا عمر، فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت! ومن أيقن بالحساب خاف العذاب! وهو واقف يسمع كلامها، فقيل له: يا أمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف؟ فقال: والله لو حبستْني من أوّل النهار إلى آخره لا زلت إلا للصلاة المكتوبة، أتدرون من هذه العجوز؟ هي خَوْلَة بنت ثعلبة، سمع الله قولها من فوق سبع سموات، أيسمع ربّ العالمين قولها ولا يسمعه عمر؟!

ما نقل لنا من النص

هي خَوْلة بنت ثعلبة، كانت تحت أَوس بن الصَّامت أخو عُبَادة بن الصامت، وكانت حسنة الجِسم، فرآها زوجها ساجدة، فنظر إليها، فأعجبه أمرها، فلما انصرفت أرادها فأبتْ، فغضب عليها!

قال عُرْوة: وكان امرأً به لَمَم، فأصابه بعض لَمَمِه، فقال لها: أنت عليّ كظهر أمي! وكان الظهار يعدّ طلاقًا في الجاهلية، فسألت النبيّ ﷺ فقال لها: «حرمتِ عليه»!

فقالت: والله ما ذكر طلاقًا! ثم قالت: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي ووحشتي وفراق زوجي وابن عمي، وقد نفضتُ له بطني!

فقال: «حرمتِ عليه»!

فما زالت تراجعه ويراجعها حتى نزلت الآية.

وروى الحسن: أنها قالت: يا رسول اللهْ قد نسخ الله سنن الجاهلية، وإن زوجي ظاهر مني، فقال رسول الله ﷺ: «ما أوحي إليّ في هذا شيء»!

فقالت: يا رسول الله، أوحي إليك في كل شيء، وطُوِي عنك هذا؟!

فقال: «هو ما قلت لكِ»!

فقالت: إلى الله أشكو لا إلى رسوله. فأنزل الله: (قَدْ سَمِعَ ٱللهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللهِ) الآية.

ومما قالت له:

جعلني عليه كظهر أمّه، وإنّ لي منه صبية، إنْ ضممتهم إليه ضاعوا! وإن ضممتهم إليَّ جاعوا!

مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ..

قد يقال بأنهم لا يقولون بأنهنّ أمهاتهم. ما قالوه: أنت علي كظهر أمّي، فهذه كافُ التشبيه، والتشبيه محدد في نقطة معينة.

فكيف يقول: ما هنّ أمهاتهم؟

لعل الجواب هو الرغبة في الكفّ عن هذه العبارة التي تُزري بالأم والزوجة معًا! لا سيما وأن الظهر يعني الدابة التي يركب الناس ظهرها! ولهذه العبارة القبيحة مرادفات أقبح منها، ذكرها المشايخ في كتاباتهم، وعزفت عن ذكرها.

ثم يعودون لما قالوا

هل المقصود: عمّا قالوا؟ أم يعودون لما قالوا إنهم لن يعودوا إليه؟

الظهار عند الفقهاء

ظاهر الأمر أن الظهار ليس طلاقًا كما كانوا يرونه في الجاهلية. وهو مختلف عن الطلاق، من حيث الصيغة، وقد ينتهي إلى الطلاق وقد لا ينتهي. وقد يقع نتيجة غضب، أو يراد به الإضرار بالمرأة، بحيث تصبح لا هي مزوجة ولا هي مطلقة، وقد تفضل الطلاق لكي تتزوج من رجل آخر إذا كان وضعها يسمح لها بذلك، وإلا بقيتْ عند زوجها ولو لم يعاشرها. فإذا أراد الرجوع وجبتْ عليه الكفّارة (كفّارة يمين)، لكي لا يتسرع في مثل هذه التصرفات. في الطلاق قد يحتاج الرجل إلى عقد جديد ومهر جديد في بعض الحالات.

اطلعت على ما كتبه **وهبة الزحيلي** في الوجيز في الفقه، فرأيت أنه لم يبين القصد من الظهار، ووضع الظهار في مباحث الطلاق تحت عنوان: التفريق بسبب الظهار، ولعل الصواب أن يكون قسيمًا له ببحث مستقل.

ومع هذا عندما تكلم عن انتهاء الظهار تكلم عن الموت، ولم يتكلم عن التفريق! وتكلم عن الظهار المؤقت الذي ينتهي بانتهاء وقته المحدد، وهنا يشعر القارئ أن هذا إما أنه لا يدخل في الظهار أصلاً، أو أنه من الظهار المباح الذي لا يستوجب الكفارة.

وذكر حديثًا نبويًا واحدًا في الظهار قد يرى قارئه أن هذا الظهار ليس من الظهار الذي حرّمه القرآن، فلذلك رأت بعض المذاهب أن الكفارة فيه غير مطلوبة. هذا هو الحديث: قال سلمة بن صخر: تظاهرتُ من امرأتي حتى ينسلخ شهر رمضان، وأخبر النبي ﷺ أنه أصابها في الشهر، فأمره بالكفارة (حسنه الترمذي).

كتابة الفقه على هذه الصورة كتابة متعبة للقارئ. وقد ينطبق هذا على الزحيلي وغيره أيضًا. أرجو أن يقوم الجيل القادم من المؤلفين في الإسلاميات بردّ الروح إلى عالم التأليف.